مشاهد الناس عند الموت

تأليف
الشيخ عبد الرحمن خليف

عينت بطباعته :**مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شارع البطل أحمد ـ العزيز
تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع ٩٧/٨٩٠٨
الترقيم الدولى 7 - 028 - 286 - 977
الطبعة الأولى : ١٩٩٧م

طبع على نفقة أحد المحسنين

تصميم الغلاف
والأشراف الفنى
عاطف منصور

السندباد للكمبيوتر

مشاهد الناس عند الموت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلوات الله المباركات على سيّدنا محمد خاتم النبيين المرسلين ، وعلى آله وصحابته أجمعين

أمّا بعد فإنّه ما من إنسان إلا له ميل إلى المعرفة ، والمعرفة المتاحة فى الحياة متكاثرة الأنواع ، ولا يمكن للإنسان أن يستوعبها كلّها ، لأن قدرته المحدودة ، لا تتّسع إلى الإحاطة بها جميعاً ، فكان لزاما عليه أن يقتصر على بعضها .

وليس من العيب ولا من ضآلة المعرفة ألا يُحيط الطبيب بعلم الفلك ، ولا المهندس بعلم الأدب ، ولا الطيّار بعلم الفلاحة ، إلى آخر مجالات الاختصاص فى ما لا يكاد يُحصى من أنواع المعارف المتوفّرة فى الحياة ، فكان كلّ امرئ يختار ما يرتضى من دائرة المعارف الإنسانية وإنّها لدائرة فسيحة الأبعاد ، متفتّحة الأبواب أمام كلّ راغب.

غير أن باباً واحداً منها لا يكترث به ولا بمعرفته كثير من النّاس ، مع أنّه لا بدّ أن يدخله كلّ إنسان جبرا وقسرا ، سواء أراد معرفة ما وراءه أم لم يردها، إنّه باب الرحلة إلى العالم الآخر .

لقد أسدل كثير من النّاس على هذا الباب ستاراً سميكاً يُعلن عن عدم اكتراثهم بمعرفة ما وراءه ، فكان الواحد منهم لا يلحظه بأدنى التفاتة إلى أن يدخله على حين غفلة منه .

وإذ كانت الرحلة إلى العالم الآخر قضاء لازماً وقدراً محتوماً ، فإنّ الحكمة تدعو إلى معرفة ما يتّصل بهذه الحقيقة الأزلية الأبدية، حتى لا يكون الإنسان مخادعاً لنفسه إذا كان يعلم - علم اليقين - أنّه سيفاجأ حتما بِإِدْرَاجِهِ فى رحلة لا علم له بما سيلقى فى بدايتها ولا فى أثنائها .

إنّها رحلة مليئة بالمفاجآت ، وليست كأيِّ رحلة عرفها الإنسان ولا تشبهها من أيّ وجه، وحسب المرء أن يستحضر فى ذهنه ما تمتاز به عن رحلات الدنيا من فوارق لا يجهلها أحد من النّاس.

أفلا يعرف النّاس :

- أنّ رحلات الدنيا يتحدّد العلم بوقتها، أما هى فلا أعظم مباغتة للمرء منها.

- أنّ رحلات الدنيا يمكن للإنسان أن يُلغيها متى أراد ، أمّا هى فلا تلغى بحال من الأحوال .

- أنّ كلّ رحلة لا يرى الإنسان فيها إلا وجوها آدميّة أينما توجّه ، أمّا هى فسيرى فيها من لم يشهد لهم مثيلاً طيلة ما عاش فى الدنيا .

- أنّ كلّ رحلة يمكن للإنسان أن يرجع منها إلى موطنه ، أمّا هى فلا عودة منها ، ولا رجوع .

- أنّ كلّ رحلة يستطيع المرء فيها أن يخاطب من فارقهم بأىّ وسيلة ممكنة ، أمّا هى فلا تتوفر فيها وسائل الاتّصال بمن يريد .

- أنّ كلّ رحلة تحتاج إلى زاد يناسبها ، أمّا هى فتقتضى زاداً أعظم من كلّ زاد.

- أنّ كلّ رحلة تكون فيها مغانم الإنسان وخسائره محدودتين ، أمّا هى فمغانمها وخسائرها لا حدود لهما ، ولا يُحيط بهما الوصف والبيان.

- أنّ رحلات الحياة قد تقصر وقد تطول ، ولا بدّ لطول كلّ رحلة من نهاية ، أمّا هى فطولها لا نهاية له أبدا.

وليست الفوارق منحصرة فى تلك الثمانية ، ولكن التقصى يكشف عن فوارق أخرى أعجب وأكثر .

أفلا تكون تلك الرحلة الحتميّة العجيبة جديرة بأن يعرف المرء ما يتعلّق بها ، ولو بقدر محدود من المعرفة المتاحة للإنسان ؟

إنّ اكتساب الإنسان للمعرفة قد يكون نظريّا ، وقد يكون عمليّا ، وأوفى المعرفة بالاطمئنان والارتياح ما كان منها عمليّا ، ولمّا كان مآل جميع النفوس إلى الموت لقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (١)

فإنّ المعرفة الحاصلة بالموت بعد مذاقه لا يتمكن صاحبها من تدارك ما فاته بما استفاد من الموت كمدخل لبداية الرحلة إلى العالم الآخر.

أمّا نحن معاشر الأحياء فلا أقلّ من أن نطّلع على أحوال من سبقونا إلى مصارعة الموت لهم .

وما أعظم ما نستفيد من معرفة (مشاهد النّاس عند الموت) ما دام كلّ حىّ منّا مستهدفا للممات .

إنّ (مشاهد النّاس عند الموت) لمن أعجب العبر ، وما أنفعها من عبر يشاهدها المرء فى اللحظات التى يطوى فيها الموت حياة النّاس ، وفى صُوَرٍ لا تكاد تُحدّ أشكالها وألوانها ، ولعمر الله إنّ السعيد لمن اتّعظ بغيره .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

إنّ مئات المشاهد المجموعة فى هذا الكتاب قد انتقيتها من أجزاء عديدة لعشرات الكتب ممّا كان قد أُلِّفَ فى مختلف الأعصار والأمصار .

وسأمهد لتلك الشاهد بشىء من البيان المناسب ، وكثيرا ما أعرض - فى هذا البيان - طائفة من النصوص الواردة عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وسأُتْبِعُ المشاهد بما يتيسر لى من (أضواء) البيان محاولا - بتلك الأضواء - أن أكشف الصلة بين المشاهد وبين تعاليم الإسلام ، إلا فيما يكون غنيا عن ذلك البيان .

وسأضمّ - إلى كلّ ذلك - ما ينبغى أن يقوم به الأحياء من شئون إخوانهم عند الاحتضار وبعده .

ويتضّح من كلّ ما تقدّم أنّ ما جمعه هذا الكتاب يمكن أن يساعد الناشئ فى مجال الدعوة ، وأن يستمدّ منه الواعظ ما يشاء ،وقد لا يستغنى عنه أحد ممّن سيدركه الموت لا محالة .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به من يقرؤه وأن يُثيب من يُنبّه إلى قراءته إخوانه ، إنّه سبحانه سميع قريب مجيب ، والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القيروان فى : ٢٤ جمادى الأولى ١٤١٥ هـ

٢٨ أكتوبر ١٩٩٤م

الموت نهاية حياتنا الأولى

الحياةُ هبةٌ من صنع الله ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ - السجدة - ٧ - ٨ - ٩ .

وانقضاء الحياة الأولى بالموت لا يكون إلا بإذنه سبحانه ، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً ﴾ - آل عمران - ١٤٥ .

فإذا تعطَّلتَ - بإرادة الله - بنية الحياة الجسدية وانقطع ما كان بين الروح والجسد من صلات ، فإنّ الوفاة تحدُث وتُنقل الروح بالموت إلى مقرّ الأرواح ، ثمّ تتلاشى أجزاء الجسد فى الأرض إلى أن ينشئها الله النشأة الأخرى، فيخرجها من الأرض بالبعث للحساب ، تبعا للمراحل المقرّرة فى سابق علمه ، والمحدّدة فى قوله: ﴿ مِنْها خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ طه- ٥٥ .

ولما كان الموت قضاء حتميا ، ومرحلة من مراحل الوجود الإنسانى، حَسُن أن يهتم المرء بمعرفة هذه السبيل التى لا بد أن يعبرها، وحَسُن أن يطلع على ما لاقى بعض الناس من الموت ، ليعتبر بأحوالهم ويستعد لملاقاة ما لاقى كل البشر من قبله ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الذى تَفِرُّونَ مِنْه فَإِنَّه مُلاَقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ - الجمعة ٨ .

ولقيمة الموت عند الله ذكرت فى القرآن العظيم كلمة الموت وما اشتق منها أكثر من مائة وسبعين مرة .

أما الأحاديث النبوية فقد استوعبت بالبيان كل ما ينبغى أن يعلمه الإنسان عن الموت وعما بعد الموت ، وسترى الكثير مفصلا أثناء فصول الكتاب إن شاء الله .

الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالإكثار من ذكر الموت

روى ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

« أَكْثِروا ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذات الـمَوْتَ »

وروى ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: أتيت رسول

الله صلى الله عليه وسلم عَاشرَ عَشْرَة، فقال رَجُل منَ الأنصَارِ: مَنْ أَكْيَسُ النَّاس وَأَكْرَمُ النَّاس يا رسولَ الله ؟ فقَال صلىَ الله عليه وسلم:

« أَكْثَرهُمْ للمَوت ذكْراً، وَأَشَدُّهُمْ اسْتعْدَاداً لَهُ »

وروى الإمام أحمَد فى الزهد، وابنَ أبى شَيْبَة فى المُصَنَّف عن ابن سابط أنه قال: ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل، فأُثنى عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: « كيف ذكْرُهُ لِلْمَوْتِ؟ » فلم يُذكر ذلك منه، فقال صلى الله عليه وسلم: « مَا هُوَ كَمَا تَذْكرُونَ ».

وكان ثابت البنانى يقول: ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤى ذلك فى عمله.

من (الحلية ج٢ ص٣٢٥)

الاستعداد للموت

روى الطبرانى عن طارق المحاربى رضى الله عنه أنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إسْتَعدَّ لِلْمَوْت قَبْلَ نزُولِ الْمَوْتْ ».

قال عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: ما أحد يُنزل الموتَ حق منزلته إلا عدّ غداً ليس من أجله، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم راج غدا لا يبلغه، لو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره، وقال إن من كانوا قبلنا كانوا يجعلون للدنيا ما فضل عن آخرتهم، وإنكم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم.

وقيل لأبى الفضل يوسف بن مسرور: فلان يتكلم فيك.

فقال: إنما مَثلى ومَثلُه كمَثَلِ رجلٍ حُمل لضرب عُنقه، فقذفه رجل فى الطريق، فقال لنفسه: أنت تُحمل للقتل، تسألُ عمن يقذفك؟

وأنا سائر إلى الموت لا أدرى متى يأتينى، أسأل عمن يتكلم فىّ؟ فى الموت ما يشغلنى عن ذلك.

من(ترتيب المدارك ج٥ص١٤٥)

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته: أما بعد فإنك إن استشعرت ذكر الموت بغَّض إليك كل فان، و حَبّبَ إليك كل باق.

لما توفى أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الجبنيانى وجدت رقعة - بعد موته - تحت حصير مكتوبة بخطه: (رجل وقف به هاتف، فقال له: حَسِّن عملك فقد دنا أجلُك).

قال ولده عبدالرحمن: أنه كان إذا قصر فى العمل أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جده.

توفى - رحمه الله - يوم الأحد السابع من محرم سنة تسع وستين وثلاثمائة.
من (ترتيب المدارك ج ٦ ص ٢٤٦)

ودخل بهاء الدين السبكى على الشيخ برهان الدين الإبناسى يعـوده، وكان تجاههما نعش، فنظر السبكى إلى النعش ثم قال للإبناسى: يا شيخ برهان الدين، أتدرى ما يقول هذا النعش؟

فقال إنه يقول:

أُنْظُرْ إِلَىَّ بِعَقْلِكْ ... أَنَا المُعَـــدُّ لِحَمْلِكْ
أَنَا سَـرِيرُ المَنَايَا ... كَمْ سَارَ مِثْلِى بِمِثْلِكْ

من (كتاب المَنهل الصافى ج١ ص ٤١٣)

وكان من دعـاء يزيد بن ميـسرة قوله: اللهم اجـعل مخافـتك فى قلوبنا، وأدم على قلوبنا ذكر الموت.

ما يعين على ذكر الموت

لما كان ذكر الموت مأموراً به شرعاً، فإن مما يساعد على ذلك هو الاطلاع على أخبار الموتى وأحوالهم بعد الموت، والتدبر فيما آل إليه أمرهم، وفيما يتوقع لهم بعد الموت.

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

« زوروا القبور، فإنها تذكر الموت ».

وروى أبو عبدالله الحـاكم عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « زر القبور تَذْكُرْ بها الآخرة، واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك، فإن الحزين فى ظل الله يتعرضّ لكل خير » .

من مشاهد الذاكرين لحتمية الموت

الإمام البخارى:

كان رحمه الله ينشد:

اغْتَنِمْ فِى الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُـوعِ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَهْ
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهْ

محمد بن دمام :

قال السيوطى: محمد بن عبدالله بن دمـام المالقى الأندلسى كان شيخاً جليلاً شاعراً أديباً من أهل الفضل والدين، ومن شعره:

كَيْفَ أَرْجُو مِنَ المَنَايَا خَلاَصاً ... وَأَرَى كُلَّ مَنْ صَحِبْتُ دَفِينَا

فَأَرَى النَّـاس يُنْقَلُون سراَعاً كُلَّ يَـوْمٍ إِلَيْهِـمُو مُرْدَفِينَا
قَدْ أَصَـابَتْهمو سِهَامُ المَنَـايَا وَسَتُـرْمَى السِّهَامُ لَا بُدَّ فِينَا

من(بغية الوعاة فى طبقات النحاة ص ٥٢)

أبو الوليد الباجى:

كان رحمه الله ينشد:

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ علماً يقيناً بِأَنَّ جَـمِيعَ حَيَاتِى كَسَـاعَهْ
فَلِمَ لا أَكُـونُ ضَنِيناً بِهَا وَأَجْعَلُهَا فِى صَلَاحٍ وطَاعَهْ؟

الموت مخوف ومكروه

أكثر الناس يكرهون الموت ويخافونه، وما كرهه الناس إلا لعدّة أسباب، و تلك الأسباب تختلف من شخص إلى آخر، ومن بينها الثمانية التالية:

السبب الأول: الحياء من الله حياءً كحياء أم هارون.

قال أحمد أبى الحوارى: قلت لأم هارون العابدة الدمشقية:

أتحبين الموت؟

قالت: لا.

قلت: ولم؟

قالت: لو عصيت آدمياً ما أحببت لقاءه فكيف أحب لقاء الله وقد عصيته؟

من (صفة الصفوة ج٤ ص ٣٠٤)

السبب الثانى: الخشية الحادة من أن ينزل المرء منزلة تضره ولا تسره.

قال بعض أصحاب هذه الخشية:

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدرِ فى أى المحلين تنزل؟

قال سعيد بن أبى عطية:

لما حضر أبا عطية الموت جزع منه، فقالوا له:

أتجزع من الموت؟

فقال: مالى لا أجزع، وإنما هى ساعة، ثم لا أدرى أين يسلك بى؟

من (الحلية ج٥ ص ١٥٤)

لما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة، سئل عن مسألة فدمعت عيناه ، وقال:

يا بنى باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة ، هو ذا يفتح الساعة لى، لا أدرى أيفتح بالسعادة، أو الشقاوة ، فأنى لى أوان الجواب؟

من (رسالة الثبات عند الممات ص٦٢)

السبب الثالث: ضعف التزود من العمل الصالح، حتى فات زمن التدارك، وقامت العوائق، والله سبحانه قد قال فيمن هذا شأنهم: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾- المنافقون - ١٠ -١١ .

ونحسر بعض الناس عند الموت، فقيل له: ما بك؟

فقال:ما ظنكم بمن يقطع سفراً طويلاً بلا زاد، ويسكن قبرا موحشاً بلا مؤنس، ويقدم على حكم عدل بلا حجة.

من (الكشكول للعاملى ج١ ص٢٩٠)

السبب الرابع: الإسراف على النفس والغفلة عن محاسبتها، لأن الغفلة عن المحاسبة، والتسويف بالمتاب يفضيان إلى تراكم السيئات، حتى يذهل من تراكمها من ينتبه إليها.

كان الشيخ توبة بن الصِّمَّة من الطيبين، وكان محاسبا لنفسه فى أكثر أوقات ليله ونهاره، فحسب يوما ما مضى من عمره، فإذا هو ستون سنة، فحسب أيامها، فكانت إحدى وعشرين ألف يوم، وخمسمائة يوم فقال:

يا ويلتا، ألقى مالكى بإحدى وعشرين ألف ذنب ثم صعق صعقة كانت فيها وفاته. (وهذا بحساب ذنب واحد فقط فى اليوم الواحد) .

من (الكشكول للعاملى ج٢ ص ٣٣٧)

السبب الخامس: تعلق المرء بالدنيا أو بشيء معين منها تعلقاً شديداً مع تيقنه أن الموت سيحول - حتماً - بينه وبين التمتع بما تعلق به شديد التعلق.

روى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء القارئ النحوى أنه قال:

بينما أنا ذات يوم - أحسبه قال فى ضيعتى - سمعت قائلاً يقول:

وَإِنَّ امْرَءاً دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمُسْتَمسك مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ

فكتبت هذا البيت على فص خاتمى فكان نقشه هذا.

من (كتاب طبقات النحويين واللغويين)

السبب السادس: الشك فى إحياء الموتى وبعث الخلق للحساب والجزاء.

فمن الناس من يكون أحدهم شاكاً فى البعث، فيرى أن الموت ربما يكون عدما محضاً، وربما يكون البعث بعد الموت حقيقة، ومن هنا يكون كارهاً للموت على كل حال.

إن هذا المتردد فى الإيمان باليـوم الآخر لا يكون من المؤمنين، إذ أنه ليس على يقين من لقاء ربه، وفى هذا الصنف من الناس يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ - الجاثية - ٣٢ - ٣٣ .

ومن الناس من يكون ضعيف الإيمان جداً، فيتصرف تصرف الشاك المستبعد للقاء ربه، فإذا قام بعمل صالح يقوم به على ما تقتضيه العادة، أو على وجه المفاخرة أو حب الثناء عليه من الناس، أو نحو هذه المقاصد ولا يريد وجه الله بما يصدر عنه من عمل صالح، فإذا حل به الموت واجه الحقيقة وأغتمّ لتفريطه.

السبب السابع:

يقين بعض الناس يقيناً جازماً بأن الموت عدم تام، فلا بعث للخلق بعد الموت، وأن كل المتع ستفوته بالموت، فيحرم منها نهائياً، فهذا لا يحيا إلا على كره دائم للموت، ويعيش مذعوراً من كل سبب يفضى إلى الموت، خصوصاً إذا كان من المنغمسين فى إحدى ملذات الحياة،أو فى العديد منها.

السبب الثامن: رؤية بعض الناس لمن حضرهم الموت وهم فى حال نزع شديد، فيشاهدونهم يعالجون سكرات الموت معالجة أعظم من أن توصف، فيشتد فزع المشاهدين للمحتضرين، ويتمكن منهم الخوف والكره لمصير محتوم، ويا ليتهم يأخذون منه العبرة، فيستعدون له بالعمل الصالح أحسن استعداد.

تلك هى أكثر الأسباب التى من أجلها يكره الناس الموت، غير أن من الناس من ينظرون إلى الموت نظرة لا تتسم بالكره، فقد قال بعض السلف:

ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة، لأنه إن كان محسناً فالله يقول: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ - الشورى - ٣٦ . وان كان مسيئا فالموت يحجزه عن الاسترسال فى المعاصى، والله سبحانه يقول : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الجاثية - ٢٩ .

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« اثْنَان يَكْرَهُهُمَا ابْن آدَمَ : يَكْرَه الْمَوْت ، والموت خَيْر لَه مِنَ الْفِتْنَة، وَيَكْرَه قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّة الْمَالِ أَقَلّ لِلْحِسَابِ » .

وقال بعض الشعراء :

جَزَى اللـه عنَّا المَوْتَ خَيْرَ جَزَائه ... أَبَـرَّ بِنَا مِـنْ كلِّ بَرٍّ وَأَرأف

يعَجِّل تَخْليصَ النّفوسِ مِنَ الأذَى ... ويُدْنِى مِنَ الدَّارِ التِى هِىَ أَشْرَف

وقيل لبعضهم :

أطال الله بقاءك . فقال :

بل عَجَّل الله بى إلى رحمته .

ولعل من الناس من يظن أن كره الموت هو كره للقاء الله، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الظّن من أذهان أمته حين قال : (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّه أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّه كره الله لِقَاءه - قالت عائشة أو بعض أزواجه :

إنا نَكْرَهُ المَوْتَ يا رسولَ الله - قال صلّى الله عليه وسلم : لَيْسَ ذَلك، وَلَكِنَّ المؤْمِنَ إِذَا حَضَرَه المَوْت بُشِّرَ برِضْوَان اللَّه وَكَرَامَته، فَلَيْسَ شَىْء أَحَبَّ إِلَيْه مِمَّا أَمَامَه، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّه، وَأَحَبَّ اللَّه لِقَاءَه، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّه وَعقوبَته، فَلَيْسَ شَىْء أَكْرَهَ إِلَيْه مِمَّا أَمَامَه، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّه وَكَرِهَ اللَّه لِقَاءَه).

رواه البخارى عن عبادة بن الصامت وغيره

ما أعجب عشق الروح للجسد

صفات التنافر بين الروح والجسد أكثر من صفات التوافق بينهما، ولذلك لا تدخل الروح فى الجسد إلا بعسر وضغط عليها، ولكن استقرارها فى الجسد مدة العمر جعلها تأنس به، وتود ألا تفارقه، ولقد قيل : لولا الألفة العارضة بين الروح والجسد لم تستقر فيه طرفة عين لأن بينهما بونا بعيدا .

قال أحمد بن محمد الطوسى أخو الإمام أبى حامد الغزالى :

(ذكرت - فى يوم من الأيام - آدم عليه السلام وأنه وهب لابنه داود عمرا ثمّ جحده حين جاء ملَك الموت آدم فَتَمَنَّع، وكأنَّ لسان الحال خاطب الروح قائلاً :

أنت نُحْت على نفسك لما أمرت بالدخول فى هذا السجد وقلت : بيت مظْلِم، مستَقْذَر، فما الذى يَصْعب عليكَ من الخروج منه. فكأنها أجابت بلسان الحال :

نَزَلْنَا كَارهينَ لَهَا فَلَمَّا ... أَلِفْنَاهَا خَرَجنَا مُكْرَهِينَا

وَمَا حبَّ الديَار بِنَا وَلَكِنْ ... أَمَرّ العَيْش فُرْقَةُ مَنْ هَوِينَا

من (الوافى بالوفيات ج ٨ ص ١١٥)

إن هبة آدم لابنه داود سنين من عمره، وجحـوده لتلك الهبة وردت فى مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه قال :

لَمَّا نزلتْ آية الدَّيْنِ قال رسول الله صـلّى الله عليه وسلم : (إنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ عَلَيْه السلام، قالها ثلاثَ مَرّات، ثمّ قال إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عليه الصلاة والسلام مَسَحَ ظَهْرَهُ فَأَخْرَجَ منْه مَا هوَ ذَارِئٌ إلى يوم القيامة، فَجعَل يَعْرضهمْ عَليه، فرأى فيهمْ رَجلا يزْهر، فقال أىْ رَب أىُّ بَنِيَّ هَذَا ؟ قال : هذا ابنكَ دَاود، قال أى رَبِّ كَمْ عُمره ؟ قال : ستـونَ سَنَةً قال : أىْ رَبِّ زِدْ فى عمـره، قال : لاَ، إلا أنْ تَزيدَه أنتَ منْ عـمرِكَ، فَكَانَ عمـر آدَمَ أَلْفَ عَام، فَوَهَبَ لَه منْ عمـره أَربعينَ عَامَـا، فكَتَبَ اللَّه عَزَّ وَجَلَ عَلَيْه كـتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْه الملائكَةَ، فَلَمَّا حُضرَ آدَم عليـه السلام أَتَتْه المَلائكَة لتَقْبضَ روحَه، فَقَالَ : إنَّه لَمْ يَحْضرْ أَجَـلى، قَدْ بَقىَ منْ عمرى أَربعـونَ سَنَةً، فقالوا إنَّكَ وَهَبْتَها لابنكَ دَاودَ، قال مَا فَعَلْت، ولا وهبت لَه شَيْئًا . و أَبْرَزَ اللَّه عزَّ وَجَلَّ عليه الكتَابَ، فأقام عليه الملائكَةَ)

زاد فى رواية أخرى عن ابن عباس أيضا :

(فَأَتَمَّهَا لدَاودَ مائَةَ سَنَة، وَأَتَمَّ لآدمَ عمرَه أَلفَ سَنَةً)

وكلّ ذلكَ من فضل اللّه وكَرَمه .

مشهد عنف النزع للأرواح

روى البخارى فى باب سكرات الموت من كتاب الـرقاق عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول :

إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان بين يديه (أى فى مرض مـوته) رَكْوَة أَوْ علْبَة فيها مَاء (الشك من ذَكـوَانَ الذى روى عن عائشة) فَجَعَلَ صلى الله عليه وسلم يدْخل يَدَيْه فى المَاء، فَيَمْسَح بهمَا وَجْهَه ويَقول لاَ إلَهَ إلا اللَّه،إنَّ للمَوْت سكَرَات).

وفى روايَة للبـخارى عن عـائشـة رضى الله عنهـا أنه صلى الله عليـه وسلم كَـان يمسح وجهه بالماء ويقول : اللَّهمَّ هَوِّنْ عَلَىَّ سكرات المَوت .

ثم نصب يده فجـعل يقول : فِى الرَّفيقِ الأعلى حَتَّى قُـبِضَ، وَمَالَتْ يَده صلى الله عليه وسلم .

وقوله فى الرفـيق الأعلى سأل أن يدخله الله فـى الملأ الأعلى من الملائكة والنبـيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وروى البخارى أن فاطمة رضى الله عنها كانت تقول :

وَاكَرْبَاه لكَرْبِكَ يَا أَبَتَاه، فقال صلى الله عليه وسلم :

(لاَ كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ اليَوْمِ) .

قال الإمام القسطلانى :

الموت هو الخَطْب الأَفْظَع، والأمر الأَشْنَع، والكَأس التى طعمها أَكْرَه وَأَشْنَع.

من (إرشاد السارى ج ٩ ص ٢٩٧)

وقال القرطبى :

فى تشديد الموت على الأنبياء فائدتان :

إحداهما : تكميل فضائلهم، ورفع درجاتهم، وليس ذلك نقصا ولا عذابا بل هو كما جاء فى الحديث (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلاء الأَنْبِيَاء ثمَّ الأَمْثَل فَالأَمْثَل ....) .

والثانية : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت، وأنه باطن وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركةً ولا قلقا ويرى سهولة خروج روحه، فيظن سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون شدة ألمه مع كرامتهم على الله قطع الخلق بشدة الموت الذى يقاسيه الميت مطلقا، لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما ثبت فى الحديث .

وروى ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

(إِنَّ الْمؤْمِنَ لَيؤْجَر فِى كلِّ شَىْء، حَتَّى فِى الكَظِّ[1] عِنْدَ الْمَوْتِ)

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول :

(لا أَكْرَه شِدَّةَ الْمَوْتِ لأحَد أَبَداً بَعْدَ النَّبى صلى الله عليه وسلم) تعنى بعد الذى رأت من موت الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الله قد خص رسوله بأكمل الحالات، وأكرمها عنده، مع أنها روت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى موت الفجاءة : (هوَ رَاحَةٌ لِلْمؤْمِنِ، وَأَسَفٌ عَلَى الْفَاجِرِ) .

رواه الإمام أحمد عنها

وروى الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يَتَعَوَّذ مِنْ مَوتِ الفجَاءَة، وكان يعْجِبه أَنْ يَمْرَضَ قَبْلَ أَنْ يَموتَ.

وروى ابن سعد عن عوانة بن الحكم أنه قال :

---

(١) الكظّ : الغمّ الشديد .

كان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول :

عَجبًا لِمَنْ نزل به الموت وعقله معه كيف لا يَصِفه، فلمّا نزل به قال له ابنه عبد الله : يا أَبَتِ إنّك كنت تقول : عجبا لمن نزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه؟ فصف لنا الموت، فقال :

يا بُنَيَّ، إنّ الموتَ أَجَلُّ منْ أن يوصَفَ، ولكنْ سأصف لك منه شيئا، أَجِدنى كأنَّ على عنقى جبالَ رَضْوَى، وأجدنى كأنَّ فى جوفى شَوْكَ السّلا، وأجدنى كأنَّ نَفَسى يخرج من ثَقْبِ إبْرَة.

قال أبو حامد الغزالى :

إنّما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته فى قَلْبه وفى لسَانه، وإنّمَا انقطع صَوت الميت وصياحه مع شدّة ألَمه، لأن الكَرْبَ قد بالغ فيه، وتصاعد على قلبه، وبلغ كلّ موضع منه، فَهَدَّ كلّ قوّة، وضَعَّفَ كلَّ جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة .

أما العقل فقد غَشيَه وَشَوَّشَه، وأما اللسان فقد أبْكمه، وأما الأطراف فقد ضَعَّفَهَا، وَيَودّ لو قَدَرَ على الاستراحة بالأنين والصيَاح والاستغاثة، ولكنّه لا يقدر على ذلك، فإن بقيتْ فيه قوَّة سُمِعتْ له عند نزع الروح وَجَذبهَا خوَارا، وَغَرْغَرَةٌ من حَلْقه وصدره.

من (الإحياء ج ٤ ص ٣٩٢)

روى أبو نعيم فى الحلية أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال :

مَا أحبّ أنْ يُهَوَّن عَلَىَّ سَكَرَات المَوْت، لأنَّه آخر ما يؤْجَر به المسلم .

كما روى عن واثلة بن الأسقع أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كلّ عرق منه على حياله) .

قال الحسن البصرى :

لو علم ابن آدَمَ أن له فى الموت راحةً وَفَرَجًا لَشَقَّ عليه أن يأتيَه الموت لِمَا يعلم من فظاعته وشدّته وَهَوْله .

وقال ابراهيم النخعى :

كانوا يَسْتَحبّوَن شِدَّةَ النَّزْعِ .

مشهد من شدة نزع الروح

قال أبو داود الطيالسى شهدت جنازة داود الطائى، وحضرته عند الموت فما رأيت أشد نزعا منه .

أتيناه من العشى ونحن نسمع نزعه قبل أن ندخل، ثم غدونا عليه وهو فى النزع، فلم نبرح حتى مات .

وفى رواية أخرى عن الطيالسى أنه قال :

حَضَرْت بالكوفة موت داودَ الطَّائىِّ فما رأيت أحداً أشدَّ موتا منه، كنت أسمع خُوَارَهُ كأنه خُوَارُ ثَوْرٍ، توفى رحمه الله سنة خمس وستين ومائة .

من (الحلية ج ٧ ص ٣٤١ وصفة الصفوة ج٣ ص ١٤٣)

إن داود هذا الذى اشتد نزع روحه كان رحمه الله من الأخيار، قال إسحاق بن منصور:

لَمَّا مات داود الطَّائىّ شَيَّع الناس جَنازته، فلمّا دُفِنَ قام ابن السَّمَّاك على قبره فقال:

يا داود، كنتَ تَسْهَر لَيْلَكَ إذ النَّاس نَائمون، فقال القوم جميعا: صَدَقْتَ، وكنت تَسْلَم إذ الناس يَخوضون، فقال الناس جميعا: صدقت، وكنتَ تَرْبَح إذ النَّاس يَخْسرون، فقال الناس جميعا: صدقت، حتى عدّد فضائلَه كلّها .

فلمّا فرغ قام أبو بكر النهشلى فحمد الله، ثم قال :

يَا رَبِّ إنَّ النَّاس قد قالوا ما عندهم، وَمَبْلَغَ مَا عَلِموا، اللهم اغْفِرْ له، بِرحمتك، ولا تَكِله إلَى عَمَلِهَ.

من (صفة الصفوة ج٣ ص ١٤٦)

مَنْ الذى يتوفى الأنفس؟

لما ذكر الله وفاة الأنفس فى القرآن الكريم قال : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ - الزمر ٤٢ . كما بين أن ملك الموت يتوفاها فقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَتَوفَّاكُم ملكُ الموت الَّذى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ السجدة ١١ . وبين أيضاً أن الملائكة يَتَوَفَّوْنَ الانسانَ فقال : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكم الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ الأنعام ٦١ .

أما الآية التى تضمنت أن الله يتوفى الأنفس، فلأنه تعالى هو الذى يأذن بذلك، فقد قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُموتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً ﴾ آل عمران ١٤٥ . فكانت

نسبة الوفاة إليه سبحانه بهذا الاعتبار، وأما نسبتها إلى ملك الموت، فلأنه هو الذى يتولى قبض الروح من الجسد، وأما نسبتها إلى الملائكة فلأنهم أعوان ملك الموت يأخذونها من يده عندما يقبضها، ثم يصعدون بها، على ما ورد فى الحديث التالى :

روى أبو داود، وأحمد، وابن أبى شيبة، والحاكم، وابن جرير، وغيرهم من طرق صحيحة عن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال :

(استَعيذوا باللَّه منْ عَذَاب الْقَبْر) مرتين أو ثلاثا ثم قال :

(إنّ الْعَبد الْمؤْمنَ إذَا كَانَ فى انقْطَاع منَ الدنيَا وَإقْبَال منَ الآخرَة، نَزَلَ إلَيْه مَلائكة منَ السَّمَاء بيض الوجوه، كَأنَّ وجوهَهم الشَّمْس، مَعَهمْ أَكْفَان منَ الْجَنَّة، وَحَنوط[1] من حَنوط الْجَنَّة، حتَّى يَجْلسوا منْه مَدَّ الْبَصَر ثمَّ يَجئ مَلَك الْمَوْت، حتَّى يَجْلسَ عنْدَ رَأسه، فيقول : أَيَّتهَا النَّفْس الْمطْمَئنَّة اخْرجى إلَى مَغْفرَة منَ اللَّه وَرضوَان.

قال فَتَخْرج تَسيل كَمَا تَسيل الْقَطْرَة منَ فى السِّقَاء، وإنْ كنْتمْ تَرَونْ غَيْرَ ذَلكَ، فَيَأخذهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعوهَا فى يَده طَرْفَةَ عَيْن حَتَّى يَأخذوهَا فَيَجْعَلوهَا فى ذَلك الْكَفَن، وَفى ذَلك الْحَنوط، فَيَخرج منْهَا كَأطْيَب نَفْحَة مسْك وجدَتْ عَلَى وَجْه الأرض فَيَصْعَدونَ بهَا، فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلاّ قالوا ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله تعالى : (اكتبوا كتَابَ عَبْدى فى علّيينَ، أَعيدوه إلَى الأرض، فَإنّى منْهَا خَلَقْتهمْ، وَفيهَا أعيدهمْ، وَمنْهَا أَخْرجهمْ تَارَةً أخْرَى، قال : فَتعَاد روحه فى جَسَده، فَيَأتيه مَلَكَان ... وذكر كيفية سؤال الملكين له، وجوابه لهما ثم قال :

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى

---

(١) الحنوط : هو ما يخلط من الطيب لأجسام الموتى وأكفانهم خاصة .

يجلس عند رأسه، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له ، ثم قرأ رسل الله صلى الله عليه وسلم :﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيقول الله عز وجل:(اكْتبوا كِتَابَه فِى سِجِّينٍ السُّفْلَى﴾ فَتطرَح روحه طَرْحًا ثمّ قَرَأَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى به الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.- الحج ٣١ .

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان .. الى آخر الحديث (١)

مشاهد الناس قبل نزول الموت

أكثر الناس لا يعز عليهم شيء مثل ما تعز عليهم حياتهم ولا يجزعون أشد الجزع مثل ما يجزعون من شعورهم بدنو آجالهم واقتراب خروجهم من الدنيا.

ومع إدراك الناس لعزة الحياة فإن منهم من يعمر حياته بالعمل الصالح، ومنهم من تستحوذ عليه الغفلات، فيطوى عمره على فراغ، أو يعمره بالموبقات حتى إذا فاجأه الموت ذعر من المفاجأة، وغمرته حسرة يتضاءل دونها الوصف والبيان. وبقدر ما امتدت به أيام العمر بقدر ما يتعاظم به ألم الحسرة والندامة .

روى أحمد والترمذى وأبو عبد الله الحاكم عن أبى بكرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عمره، وَحَسُنَ عَمَله، وشَرّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عمره وَسَاءَ عَمَله).

قال ابن خلكان :

ذكر أبو البركات ابن المستن فى تاريخ (إربل) أنه وجد فى كتاب ذكره الإمام أبو حامد الغزالى فى مخاطبة السلطان محمد بن ملكشاه ما نصه :

(اعلم يا سلطان العالم أن بنى آدم طائفتان : - طائفة غفلاء، نظروا إلى مشاهد

---

(١) انظر سؤال الملكين للميت وجوابه لهما بصفحة ٣١٩